انتصارات العرب



معركة الخندق







انتصارات العرب

- ٣ -

معركة الخندق

دارُ المسيرة

بيروت

إعداد
لجنة من المربّين

الطبعة الأولى ١٩٧٧
الطبعة الثانية ١٩٧٩
الطبعة الثالثة ١٩٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

ـ إِذْ جَاؤُكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً . واذ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُوراً . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُم يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لاَ مُقَامَ لَكُمْ فَأَرْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً .

« قُرْآنٌ كَرِيمْ ـ سُورَةُ الأَحْزَاب »



ـ ذَهَبَتْ هَزِيمَةُ أُحُدٍ بِجَلَالِ النصرِ الَّذِي كَانَ لِلمُسْلِمِينَ فِي بَدْرٍ . وَكَادَتْ أَنْ تَقْضِيَ عَلَى رَوْعَةِ مَا أَحْرَزُوهُ مِنْ كَسْبٍ مَعْنَوِيّ فِي الغَزْوَةِ الأُولَى . وطَارَتْ قُرَيْشٌ بِنَصْرِهَا سُرُوراً . وَحَسِبَتْ نَفْسَهَا أَنَّهَا انْتَقَمَتْ لِيَوْمِ بَدرٍ أَشَدَّ الإِنْتِقَامْ ، حتَّى صَاحَ ابُو سُفْيَانْ : ـ

ـ يَومٌ بِيَوْمِ بَدْرٍ والمَوْعِدُ العَامَ الْمُقْبِلِ .

أَمَّا هِنْدُ بِنْتُ عُتْبَةَ زَوْجَةُ أَبِي سُفْيَان ، فَلَمْ يَكْفِهَا سُرُورُهَا بِالنَّصرِ الَّذِي أَحْرَزَتْهُ قُرَيْشٌ ، وَلَمْ يَكْفِهَا مَقْتَلُ حَمْزَةَ بن عَبْدِ الْمُطَّلِب عمِّ رَسُولِ اللهِ ، « صلعم » بَلِ انْطَلَقَتْ هي والنِّسْوَةُ اللاَّتي مَعَهَا وَرُحْنَ يُمَثِّلْنَ بالقَتْلَى مِنَ الْمُسْلِمِينَ . فَأَخَذْنَ يَجْدَعْنَ الأُنُوفَ والآذَانَ ، وصَنَعَتْ هِنْدٌ لِنَفْسِهَا مِنْهَا قَلاَئِدَ واقْرَاطاً ، ثُمَّ قَامَتْ بِعَمَلٍ شَنِيعٍ لِلْغَايَةِ إِذْ احَبَّتْ انْ تَنْتَقِمَ بِشِدَّةٍ لِمَقْتَلِ ابِيهَا عُتْبَةَ الَّذِي قَضَى فِي بَدْرٍ ، فَبَقَرَتْ بطْنَ حَمْزَةَ وَجَذَبَتْ بَيْنَ يَدَيْهَا كَبِدَهُ ، وصَارَتْ تَلُوكُهُ بِأَسْنَانِهَا . وَبَلَغَ مِنْ شَنَاعَةِ مَا فَعَلَتْ هِنْدٌ وَمَا فَعلَتْ النِسْوَةُ مِمَّنْ

كُنَّ معهَا بَلْ مَا فَعَلَ رِجَالُ قُرَيْشٍ كَذَلِكَ مِنَ الفَظَائِع . أنْ تبــرَّأَ ابو سُفْيَان مِنْ تبعتِهَا ، واَعلَنَ اِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْ بِهَا وإنْ كَانَ قَدْ اشترَكَ فِيهَا .

ـ وَانْصَرَفتْ قُرَيْشٌ مِنْ اُحُدٍ بَعْدَ أَنْ دَفَنَتْ قَتْلَاهَا ، وَعَادَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى المَيْدَانِ لِدَفْنِ قَتْلَاهُمْ . وَخَرَجَ الرَسُولُ يَلْتَمِسُ عَمَّهُ حَمْزَةَ . فَلَمَّا رَآهُ وَقَدْ بُقِرَ بَطْنُهُ وَمُثِّلَ بِهِ حَزِنَ مِنْ اَجْلِهِ اَشَدَّ الحُزْنِ وَقَالَ : ـ

ـ لَنْ أُصَابَ بمِثِلكَ ابَداً . مَا وَقَفْتُ مَوْقِفاً قَطُّ اَغْيَظَ اِلَيَّ مِنْ هذَا .

وَبَعْدَ صَمْتٍ قَصِيرٍ عِنْدَ جُثَّةِ حَمْزَة سَيِّدِ الشُهَدَاءِ ، تَابَعَ الرَسُولُ كَلَامَهُ فقَالَ : ـ

ـ واللهِ لَئِنْ اظهَرَنَا اللهُ عَلَيْهِم يَوْماً مِن الدَهْرِ لأُمَثِلَنَّ بِهِمْ مُثْلَةً لم يُمَثِلْهَا اَحَدٌ مِنَ العَرَب .

وفي هذَا نَزَلَ قَوْلُهُ تعالى : ـ

« وَإِنْ عَاقَبْتُم فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ

صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ » .

ـ وَأَمَرَ الرَسُولُ بِدَفْنِ عَمِّهِ حَمْزَةَ ، وَسَائِرِ القَتلَى من المُسْلِمِينَ الَذِيْنَ لَقُوا مَصْرَعَهُمْ في مَعْرَكَةِ أُحُدْ ، وَبَلَغَ عَدَدُهُمْ سَبْعِينَ قَتِيلاً . وَانْصَرَفَ المُسْلِمُونَ الى المَدِينَةِ ، وَعَلَى رَأْسِهِم رَسُولُ اللهِ ، وفي نُفُوسِهِمْ اَلَمٌ لِما اَصَابَهُمْ مِنْ هَزِيمَةٍ بَعْدَ نَصْرِ بَدْرٍ وَمِنْ مَذَلَّةٍ وَهَوَانٍ بَعْدَ ظَفَرٍ لا ظَفَرَ مِثْلَهُ . وذَلِكَ كُلَّهُ وَقَعَ وكَانَ السَبَبَ فِيهِ الرُمَاةُ مِنْ جَيْشِ المُسْلِمِينَ ، الَذِينَ خَالَفُوا اَمْرَ الرَسُولِ وَاَشْتَغَلُوا بِجَمعِ غَنَائِمِ العَدوِّ وَاَسلَابِهِ .

ـ وَفِي المَدِينَةِ جَلَسَ الرَسُولُ في بَيْتِهِ وَرَاحَ يُفَكِّرُ بالهَزِيمَةِ الَتِي اَصَابَتْ المُسْلِمِينَ . وَقَدْ كَانَ النَصْرُ خَلِيقاً اَنْ يَكُونَ عَلَى شِفَارِ سُيُوفِهِمْ ، وفي صِدْقِ عَزَائِمِهِم ، لَو اتَصَلَتْ قُلُوبُهُمْ بِيَقِينِهِم ، فَنَفَذَتْ بَصَائِرُهُمْ إِلَى حَقِيقَةِ مَا يَنْشُدُونَ مِنَ الجِهَادِ فِي مَعْرَكَةٍ لَمْ تَكُنْ اَشيَاءُ الدُنْيَا الزَائِلَةِ لِتُعدَّ في حِسَابِهَا . وَلَكِنَّهُمْ انْكَشفوا

للإمْتِحَانِ وقَدْ ثَارَتِ الشَهَوَاتُ في نُفُوسِهِم فَأَعَادَتْهُم إلى عُبُودِيَّةٍ كَانُوا جَدِيرِينَ أنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا بِقُوَّةِ العَقِيدَةِ ورُسُوخِ الإيمَانِ. فَلَا يَصْرِفُهُم عَنِ الجِهَادِ الشَّرَهُ. والطَمَعُ. وحُبُّ الذَاتِ. وأخَذَ الرَسُولُ أيْضاً يُفَكِّرُ بأَهْلِ يَثْرِبَ مِنَ اليَهُودِ والمُنَافِقِينَ والمُشْرِكِينَ. الَذينَ أخَذُوا يُظْهِرُونَ السُّرُورَ والفَرَحَ لِمَا كَانَ مِنْ هَزِيمَةِ المُسْلِمِينَ في أُحُدْ. وَخَافَ الرَسُولُ مِن أنْ يَتَصَدَّى المُشْرِكُونَ وَعُبَّادُ الأَوْثَانِ لِدِينِ اللهِ والمُسْلِمِينَ بَعْدَ أنْ مُنِيُوا بالهَزِيمَةِ بأُحُدْ. فتَكُونُ الطَّامَةُ الكُبْرَى وَقَرَّرَ الرَسُولُ أنْ يَقُوم بِضَرْبَةٍ جرِيئَةٍ تُخَفِّفُ مِنْ وَقْعِ هَزِيمَةِ أُحُدٍ وَتردُّ الى المُسلِمِينَ قُوَّتَهُم المَعْنَوِيَةِ. وتُدْخِلُ الى قُلُوبِ اليَهُودِ والمُنَافِقِينَ الرَّهبَة. وتُعِيدُ إلى المُسلِمِينَ سُلْطَانَهُم بالمَدِينَةِ قَوِيّاً كَمَا كَانْ.

ـ فَلَمَّا كَانَ الغَدُ مِنْ يَومِ أُحُدْ. أذَّنَ مُؤَذِّنُ الرَسُولِ في المُسْلِمِينَ بِطَلَبِ العَدوِّ. واسْتَنْفَرَهُمْ

لِمُطَارَدَتِهِ . وَبَلَغَ أَبَا سُفْيَانِ الخَبَرُ وَكَانَ فِي مَكَانٍ يُدْعَى الرَوْحاءُ ومَعَهُ اَصْحَابُه . فَمَرَّ بِهِمْ رَجُلٌ يُدْعَى مَعْبَداً الخُزَاعِيّ وكَانَ قَدْ مَرَّ بالرَسُولِ وَمَنْ معهُ فسَأَلَهُ أَبو سُفْيَان عَنْ شَأْنِ الْمُسْلِمِينَ فقَالَ لَهُ مَعْبَدٌ : ـ

ـ اِنَ مُحَمَّداً قَدْ خَرَجَ فِي اَصْحَابِهِ يَطْلُبُكُمْ فِي جَمْعٍ لَمْ أَرَ مِثْلَهُ قَطْ وكُلُّهُمْ اَشَدُّ مَا يَكُونُوا عَلَيْكُمْ حُنْقاً وَمِنْكُمُ لِلثَّأْرِ طَلَباً .

وَبَعْدَ اَنْ سمِعَ أَبو سُفْيَان ومَنْ معهُ مِن المُشْرِكِين هَذَا الخَبَرَ اَثَرُوا اَنْ يُبقُوا عَلَى نَصْرِهِم بأُحُدْ . بَعْدَ اَنْ خَافُوا الهَزِيمَةَ والْمُواجَهَةَ مَعْ جَمْعِ الْمُسْلِمِينَ الخَارِجِ اِلَيهِمْ مِنَ المَدِينَةِ . وَهكَذَا عَادُوا اَدرَاجَهُمْ اِلى مَكَّةَ اَمَّا الرَسُولُ وصَحْبُهُ فَقَدْ كَانُوا يُؤْثِرُونَ الْمُوَاجَهَةَ مَعَ قُرَيشٍ وَلمَّا وَصَلُوا اِلى مَكَانٍ يُدْعَى حَمْرَاءُ الأَسد نَزَلُوا فيهِ طِيلَةِ ثَلاثَةِ ايامٍ مُتَتَابِعَة . يُوقِدُونَ النَارَ حتَّى يَدُلُّوا قُرَيْشاً على أَنَّ عَزِيمَةَ القِتَالِ لَدَيْهِمْ لَمْ تَتزَعْزَعْ .

ولَمَّا وَرَدَتِ الأَنْبَاءُ على الرَّسُولِ عَلِمَ مَا كَانَ مِنْ امْرِ الْمُشْرِكِينَ . وارْتِدَادِهِم إلى مكَّة وَهُمْ يحْمِلُون في قُلوبِهِم الخوْفُ مِنْ مُوَاجَهَةٍ جَدِيدةٍمَع الْمُسْلِمِينَ . وَعَلى الأَثَرِ عَادَ الرَّسُولُ وَمَنْ معهُ إلى المَدِينَةِ . وَقَدْ اسْتَرَدُّوا كَثِيراً مِنْ مَكَانَةٍ تزَعْزَعتْ على اثَرِ احُدْ .

ـ وعَاد أَبو سُفْيان ومنْ معهُ مِنْ اُحُد الى مكّة وَقَدْ سبَقَتْهُم اِليهَا اَخبَارُ النَصْرِ . مُمْتلئي النفْس بِالغِبْطةِ والسُّرُورِ . بمَا زَالَ عَنْ قُرَيْشٍ مِنْ عار بدْر . ولَم يلْبثْ أبو سُفْيان حِينَ بلغ مكَّة انْ قصد الكعْبَةَ قبْل انْ يدْخُلَ الى بيْتِهِ . وبِها رَفَعَ اِلى كبيرِ آلِهتِهم هُبلْ آي الثَناءِ والحمْدِ . اَما المُسْلِمونَ فإنّهمْ حِينَ عَادُوا اِلى المَدِينَةِ . وجدُوا أنَّ يهُودهَا ومُنافقِيهَا ومُشْركيها . قَدْ بدأوا يرْفَعُون رُؤُوسهُمْ ضاحكِين مِنْ المُسْلِمِين على الرُّغم مِنْ مُطاردتِهِم عدُوّهُم وثباتِهمْ لهُ ثلاثة ايامٍ . مِنْ غيْرِ انْ يَجْترِيءَ على الرجْعةِ اليْهِمْ . وهُوَ المُنْتصر

قبْلَ اربْعٍ وعِشْرين ساعةٍ عليْهِم . وشعَر الرّسُولْ عليهِ السلامْ بدِقّةِ المَوْقِفِ وحرجٍ لا في المَدِينَةِ وحْدها بلْ كَذلِكَ عِنْدَ سائِرِ قَبَائِلِ العَرَبِ . مِمن كان الرُّعْبُ مِنْهُ قدْ دَاخِلَ نُفُوسهَا . ورَدّتْ أخْذُ اليها مِن السّكِينةِ ما سَمحَ لَها أنْ تُفكّرَ في مُعارضةِ ومُناوئَةِ المُسْلِمِين . لِذلِكَ حرَصَ الرّسُولْ على انْ يقِفَ مِنْ اخْبارِ اهْلِ المَدِينَةِ ومِنْ اخْبَارِ العرب جميعا علّهُ يتمكّن من اسْتِعادةِ مَكَانَةِ المُسْلمِين وسطْوتهم وهيْبتهِمْ في النُّفُوس .

ـ واضطرّ المُسْلمُون بعْد أحُدٍ على خوْضِ غِمار اربْعِ غزوَاتٍ هِيَ غَزْوَةُ بني الأَسد . غَزْوَةُ بني النّضِيرِ . غزْوَةُ بَدْرٍ الآخِرَة . وغزْوَةُ دُومَةِ الجَنْدَلْ . ولَقَدْ كَانَتْ غزْوَةُ بَني الأَسَدِ هِي أولَى هذِهِ الغَزواتْ . فَبَعْدَ شَهْرَيْنِ مِنْ أحُدٍ بَلَغَ الرّسُولْ . انّ طُلَيحة وسلْمَة ابْنَيَ خُوَيْلِدْ . وكَانا عَلَى رأسِ بني أسَدٍ يُحرِّضان قومَهُمَا وَمَنْ اطَاعَهُما لِأَنّهُما يُريدانِ مُهاجمة المَدينةِ

وَغَزْوَ الْمسْلِمِينَ في عُقْرِ دَارِهِمْ . وَالذِي شَجَّعَهُمْ على ذَلِكَ اِعْتِقَادُهُم بِأَنَّ الرَّسُولَ وأصحابه . لاَ يَزَالُونَ مُضَعْضَعِينَ بَعْدَ يَوْمِ أُحُدٍ . وَمَا لَبِثَ النَّبيُّ حِينَ أُعلِمَ بِذلِكَ أَنْ دَعَا اليهِ أَبا سلمَةَ بْنَ عبْدِ الأَسَدِ وَعقَدَ لَهُ لِوَاءَ سَرِيَّةٍ تَبلُغُ عُدَّتُهَا مَائَةً وخَمْسِينَ مُقاتِلاً . وَوَجَّهَهُمْ لِقِتَالِ بَنِي أَسَدٍ . وَصَارَ الْمسْلِمُونَ يَسِيرُونَ لَيْلاً . وَيَخْتَفُونَ نَهَاراً . حتَّى إذا ما وصلُوا إلى دِيَارِ العَدُوِّ فَاجَأُوهُ وأَغَارُوا عَلَيْهِ غارَةً نَاجِحَةً . ثُمَّ عَادُوا إلى المَدِينَةِ وَهُمْ ظَافِرِينَ وقَدْ أَعادُوا إلى النُّفُوسِ مِنْ هَيْبَةِ الْمسْلِمِينَ شَيْئاً مِمَّا ضَيَّعَتْ أُحُدْ . والغَزْوَةُ الثَّانِيَةُ الَّتي قَامَ بِهَا الْمسْلِمُونَ وُجِّهَتْ ضِدّ يَهودِ المَدِينَةِ مِنْ بَني النَّضِيرْ . وَكَانَ هَؤُلاء يَتَرَبَّصُون بالْمسلِمِينَ بَعْدَ أَنْ اشْتَدَّتْ نُفُوسُهُمْ بِإِنْتِصَارِ قُرَيْشٍ بأُحُد . وتَنَفَّسُوا الصُّعَدَاءَ . إِذْ كَانُوا يَخَافُونَ مِن تعَاظُمِ قُوَّةِ الْمسْلِمِينَ . وَكَانُوا في رُعْبٍ دَائِمٍ يَدْعُوهُمْ إلى كَبْتِ مَا فِي نُفُوسِهِم من حِقْدٍ وبَغْضَاءٍ . وبَعْدَ يَومِ أُحُدٍ تَحَلَّلَ اليَهُودُ مِنَ

العُهُودِ والمَوَاثِيقِ التي كَانوا قَدْ عَقَدُوها مَعَ الرَّسُولِ . وتَأَهَّبوا لِلقِيَامِ بِدَوْرِ العَدُوِّ الحَاقِدِ فَأَخَذُوا يَحِيكُونَ المؤَامَرَاتِ . وَيَتَحَيَّنُونَ الفُرَصَ لِلنَيْلِ مِنَ المُسلِمِينَ . وَفَكَّرَ الرَّسُولُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي هَذِهِ الحَالَةِ تَفْكِيراً سِيَاسِياً دَقِيقَ النَّظَرِ ثُمَّ رَأى بِأَنَّ اليَهودَ والمُنَافِقِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِهِ . وَبِذَلِكَ عَزَمَ عَلَى أَنْ يَسْتَدْرِجَهُمْ لِتَتَّضِحَ نِيَاتُهُمْ فَذَهَبَ إلى مَحَلَّتِهِمْ عَلَى مَقْرُبَةٍ من قُباءِ وَمَعَهُ عَشَرَةٌ مِنْ كِبَارِ المُسْلِمِينَ . بَيْنَهُم أَبو بكرٍ الصِديقُ . وَعُمَرُ بن الخَطَاب . وعليُّ بنُ أَبي طَالِبْ . واسْتَقْبَلَ اليَهُودُ الرَّسُولَ بالغِبْطَةِ وَالبِشرِ وَهُمْ يُضْمِرُونَ لَهُ الغَدْرَ والخِيَانَةَ والتَآمُرَ عَلَى حَيَاتِهِ . وتَبَاسَطَ الفَرِيقَانِ فِي الحَدِيثِ واثناءَ ذَلِكَ أَحَسَّ الرَّسُولُ بِحَرَكَةٍ غَيْرِ عَادِيةٍ تَجْرِي مِنْ حَوْلِهِ إِذْ ذَاكَ رَابَهُ أَمْرُهُمْ وزَادَهُ رِيبةً مَا كَانَ يَبْلُغُهُ مِنْ حَدِيثِهِمْ عَنْهُ . وائْتِمَارِهِمْ بِهِ . لِذَلِكَ مَا لَبِثَ أَنِ انْسَحَبَ مِنْ مَكَانِهِ تَارِكاً أَصْحَابَهُ وَرَاءَهُ يَظُنُّونَ أَنَّهُ قَامَ لِبَعْضِ أَمرِهِ . وخَابَتْ آمَالُ اليَهُودِ بِخُرُوجِ الرَّسُولِ وذَهَابِهِ . ولَحِقَ

الصَّحَابَةُ بالرَّسُولِ وقَدْ رَابَهُمْ مَا رَأَوا مِنْ تَصرُّفِ اليَهُودِ ولَمَّا وَصَلُوا الى مَسْجِدِ المَدِينَةِ وَرَأَوا الرَّسولَ جَالِساً فِيهِ . فَلَمَّا سَأَلُوهُ عَنْ تَصَرُّفِهِ ذَكَرَ لَهُمْ مَا رَابَهُ مِنْ أَمْرِ اليَهُودِ وعِنْدَهَا آمَنَ الصَّحَابَةُ بِنَفَاذِ بَصِيرَةِ الرَّسُولِ وَمَا أُوحِيَ اليهِ . وبَعَثَ النَّبِيُّ يَدْعُو إِلَيْهِ مُحَمَّد بن مسْلَمَةَ وقَالَ لَهُ : ـ

ـ إِذْهَبْ إلى يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ ، وَقُلْ لَهُمْ إِنَّ رَسُولَ اللهِ أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ أَن أُخْرجُوا مِنْ بِلَادِي . لَقَدْ نَقَضْتُمْ العَهْدَ الَّذِي جَعَلتُ لَكُمْ بِمَا هَمَمْتُم بِهِ مِنَ الغَدْرِ بِي . لَقَدْ اجَّلْتُكُم عَشْراً فَمَنْ رُئِيَ بَعْدَ ذَلِكَ ضُرِبَتْ عُنُقُهُ .

وَذَهَبَ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ الى يَهُودِ بَنِي النَّضِيرِ واخْبَرَهُمْ بِرِسَالَةِ الرَّسُولِ ولَمَّا ذَهَبَ وَقَعُوا فِي حَيْرَةٍ مِن أَمْرِهِمِ فَمَاذَا يَصْنَعُون ؟ ولَمَّا يَئِسُوا من إِيجَادِ حَلٍ قَامَ كَبِيرُهُم حُيَي بنْ اخْطَبْ وقَالَ : ـ



قُرَيْشاً وَخَرَجَ الْمُشْرِكُون مِنْ مَكَّة في أَكْثَرِ من الفي رَجُلٍ لَكِنَّ أَبَا سُفْيَانٍ بَدَا لَهُ أَن يرجع بَعْدَ مَسِيرَةِ يومين فنادى في النَّاسِ : ـ

ـ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ إِنَّهُ لا يُصْلِحكُمْ إلا عَامٌ خَصِيبٌ . وإِنَّ عَامَكُمْ هَذَا جَدْبٌ وإِنِّي رَاجِعٌ فَأَرْجِعُوا .

وعَادت قُرَيْشٌ إِلى مَكَّة وَأَقَامَ الرَّسُولُ في جَيْشِ الْمُسْلِمِينَ يَنْتَظِرُهُمْ ثَمَانِيَةَ أَيَّام . وما أَنْ بلغه أَنَّ قُرَيْشاً قَدْ عَادَتْ دُون قِتَالٍ حتَّى اسْتَبْشَر خيْرا . وعَاد وأَصْحابه إِلى المَدِينةِ لأَنَّ بدراً الآخِرَةَ مَحتْ آثار أُحُدٍ مَحْواً تاماً . ولَمْ يَبْقَ لِقُرَيْشٍ إِلاَّ أَنْ تَنْتَظِر عاماً آخر رَازِحَةً بِذَلِك تحْتَ عارٍ مِنْ جُبْنِهَا لاَ يَقِلُّ وَطْأَةً عنْ عارِ هَزِيمَتِها في بَدْرٍ الأُولَى .

ـ وَخَرَجَ الرَّسُولُ بَعْدَ قَلِيلٍ مِنْ ذَلِكَ الى غَزْوَةٍ أُخْرَى هي غَزْوَةُ دُومَة الجَنْدَلْ . وهِيَ وَاحَةٌ تَقَعُ على الحُدُودِ مَا بَيْنَ الحِجاز والشَّام . أَيْ في مُنْتَصَفِ

الطَّرِيقِ ما بَيْنَ البَحْرِ الأَحْمرِ وخليجِ فارِسْ . ولَمْ يُقَابِلْ الرَّسُولُ والمُسْلِمُونَ القَبائِلَ الَّتي أَرَادُوا مُقَاتَلتِها هُنَاكَ . والَّتي كَانَتْ تُغِيرُ عَلَى القوافِلِ لأَنَّها مَا لَبِثَتْ حِينَ سَمِعَتْ بِقُدُومِ المُسْلِمِينَ أَنْ أَخذَها الفزَعُ فوَلَّتْ هَارِبَةً بَعْدَ أَنْ تَرَكَتْ الكَثِيرَ من الغَنَائِمِ والأَسْلابِ وَرَاءَهَا .

ـ وَآن لِلمُسْلِمِينَ بعْد إِجْلائِهِم بَنِي النَّضِيرِ عنِ المَدِينَةِ وبَعْدَ غَزْوَتِي بَدْرِ الآخِرَةْ ودَوْمَةَ الجَنْدَلْ أَنْ يرْكَنُوا إلى شَيْءٍ من الطُّمَأْنِينَةِ في حَيَاتِهِمْ بالمَدِينةِ . فَانْصرَفُوا يُنظِّمُونَ عَيْشَهُم . بَعْدَ أَن اسْتَقرَّ لهُمْ الأَمرْ . ولَكِنَّ الأَمْرَ لَمْ يَسْتَقِرَّ بالنِّسْبَةِ لِقُرَيْشٍ وبالنِّسْبَةِ لليَهُودِ فقُرَيْشْ ما زَالَ يُغْضِبُها هَذا الدِّينْ الجدِيدْ وانتِصاراتُه المُتَتالِيَة وقُوَّتُهْ الَّتي تزِيدْ بمُرورِ الوقْتِ حتَّى أَصْبح لَهْ مِنَ الحَوْلِ ومِنَ القُوَّةِ مَا جعَلَه مرْهُوب الجانِبْ . واليَهُودْ ما زَالَ يُغْضِبُهم هذَا النَّصْرُ الَّذِي سَارَ في رِكابِ الرَّسُولِ وهذِهِ القُوَّةْ الَّتي بَلَغهَا حتَّى أَخْرَج يهُود بني قَيْنُقاعْ

مِنْ المَدِينَة وأَجْلَى يَهُودَ بَنِي النَّضِيرِ عن دِيارِهِم .
لِذَلِكَ وَاصَلَ اليَهُودُ العَمَلَ بالكَيْدِ والتَّآمُرِ وصاروا يُفَكِّرُونَ بِمُحَاوَلَةِ تَأْلِيبِ القَبَائِلِ عَلَى المُسْلِمِينَ . ولم يَكُنْ أَخْطَرُ عَلَى المُسْلِمِينَ مِنْ هَذِهِ الخُطَّةِ الَّتِي رسمها اليَهُودُ لِحَمْلِ العَرَبِ المَوْتُورة الَّتِي كَانَتْ تَتَربَّصُ بالمُسْلِمِينَ الدَّوَائِرَ على القِيَام بِحَمْلَةِ قَوِيَّة تَذْهَبُ بِرِيحِ الإِسْلَامِ وتَقْضِي عَلَيْهِ . وبَعدَ مُشَاوَرَاتٍ وتَفْكِيرٍ دَقِيقٍ مَبْنِيٍّ عَلَى التَّآمُرِ كَانَتْ فِكْرَةُ تَأْلِيبِ العَرَبِ هِي الفِكْرَةُ الَّتِي اخْتَمَرَتْ فِي نُفُوسِ أَكَابِرِ بَنِي النَّضِيرِ . فَخَرَجَ مِنْهُمْ نَفَرٌ يَقْصِدُ مَكَّةَ ، وكَانُوا حُيَي بنَ اخْطب ، وسَلَّامَ ابنَ أَبِي الحُقَيْقِ ، وكِنَانَةَ بنَ أَبِي الحُقَيْقِ ، ومَعَهُم مِنْ بني وَائِلٍ هَوْذَةُ بنْ قَيْس وأَبُو عَمَّار . ولَمَّا وَصَلَ هَذَا الجَمْعُ مِن اليَهُودِ إِلى مَكَّةَ اسْتَقْبَلَتْهُمْ قُرَيْش وسُئِلَ حُيَي بنْ أَخْطَب عَنْ قَوْمِهِ فَقَالَ : ــ

ــ تَرَكْتُهُم بَيْنَ خَيْبَرِ والمَدِينَةِ يَتَرَدَّدُونَ حتَّى تَأْتُوهُم فَتَسِيرُوا مَعَهُمْ إِلى مُحَمَّدٍ وأَصْحَابِهِ .

وسُئِلَ عَنْ بَنِي قُرَيْظَة فقَالَ : ـ

ـ أَقَامُوا بِالمَدِينَةِ مُكْراً بِمُحَمَّدٍ حَتَّى تَأْتُوهُمْ فَيَمِيلُوا مَعَكُمْ .

وَفكَّرَتْ قُرَيْشُ فِي هَذَا الخِلَافِ القَائِمِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الرَّسُولِ أَلَيْسَ هُوَ عَلَى الدَّعْوَةِ الَّتِي بَلَغَتْ مَدَاهَا البَعِيدِ فِي نُفُوسِ النَّاسِ فمَكَّنتْ للإِسْلَامِ مِنَ الإِمْتِدَادِ وَالإِنْتِشَار ؟ فَهُمْ « أَيْ قُرَيْش » لَمْ يَدَّخِرُوا وَسِيلَةً مِنَ الأَذَى والحُرُوبِ الَّتِي انصَبُّوا بِهَا عَلَى الرَّسُولِ وأَصْحَابِهِ فَمَا عَادَتْ إِلَيْهِمِ إِلاَّ بِالخَسَارَةِ وَمَا زَادَت المُسْلِمِينَ إِلاَّ إِيمَاناً بِرَبِّهِمِ وَتَمَسُّكاً بِعَقِيدَتِهِمْ لاَ يَصْرِفُهُمْ أَيُّ شَيْءٍ عَنْ الإِخْلَاصِ لَهَا والفَنَاءِ فِيهَا والجِهَادِ فِي سَبِيلِهَا . أَفَلَيْسَ هَذَا دَليلاً على صِدقِ الرَّسُولِ فِي مَا يَدْعُو اليهِ ؟ أَوَلاَ يَدْعُوهُمْ هَذَا إِلَى تَأَمُّلِ هَذِهِ الحَقِيقَةِ . والتَّفْكِيرِ فِيمَا هُمْ مُقْدِمُونَ عَلَيْهِ ؟ ولَكِنَّ اليَهُودَ هُمْ أَيْضاً مِنْ أَصْحَابِ عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ فَلَهُمْ أَنْ يَقُولُوا

كَلِمَتَهُمْ في الْمُفاضَلَةِ بيْنَ الإسْلَامِ وَالْوثَنِيَّةِ . وقَالَتْ قُرَيْشٌ لِليَهُود :

ـ يا معْشر الْيَهُود . انَّكم أهلُ الكِتَابِ الأوَّلِ وَأَهْلُ العِلمِ بِمَا أَصْبَحْنَا نَخْتَلِفُ فِيهِ نَحْنُ ومُحَمَّد أَفَدِينُنَا خيرٌ أَمْ دِينِه .

فَأَجَابَ اليَهُود : ـ

ـ بَل دِينُكُمْ خَيْرٌ مِنْ دِينِهِ وَأَنْتم أَوْلَى بالحَقِّ مِنْهُ .

وَهكَذا ومِنْ أَجْلِ الإيْذَاءِ والكيدِ والتَّآمرِ والمَنْفَعةِ رَجَّحَ اليَهُودُ كَفَّةَ الوَثَنِيَّة وفَضَّلوهَا على دِينِ اللهِ الحَنيفِ . وإلى ذَلِكَ يُشيرُ القُرآنُ الكريمُ في قولِهِ تعَالَى « أَلَمْ تَرَ إلى الَّذين أوتو نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنونَ بالجِبْتِ والطَّاغوت ويَقولونَ لِلَّذينَ كَفَروا هَؤلاءِ أَهْدى مِن الَّذين آمنوا سَبيلاً . أولئكَ الَّذينَ لَعَنَهُمْ اللهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً » .

وسُرَّ القُرَشِيُّونَ بِهَذا الجَوابِ الَّذي صَدَرَ عَنْ

مَعْشَرِ اليَهُودِ فَانْشَرَحَتْ صُدُورُهُمْ وَأَخَذُوا بِالفِكْرَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا اليَهُود . وَاتَّفَقُوا مَعَهُمْ عَلَى قِتَالِ الْمُسْلِمِينَ وَحَدَّدُوا مَوْعِدَ الخُرُوجِ . وَبَعْدَ أَنِ اسْتَمَالَ وَفْدُ اليَهُودِ بِقِيَادَةِ حُيَيِّ بْنِ اخطب قُرَيْشاً لِمُحَارَبَةِ الْمُسْلِمِينَ . قَصَدَ هَذَا الجَمْعُ إِلَى غَطَفَان من قَيْسِ غَيْلَان . وإِلَى بَنِي مُرَّة . وإِلَى بَنِي فَزَارَة . وإِلَى أَشْجَعَ . وإِلَى سُلَيْم . وإِلَى بَنِي سَعْد . وإِلَى أسَد . وإِلَى كُلِّ مَنْ لَهُ ثَأْرٌ عِنْدَ الرَّسُولِ يُحَرِّضُونَهُمْ عَلَى الإِتِّحَادِ فِي سَبِيلِ القَضَاءِ عَلَيْهِ أَخْذاً بِالثَّأْرِ وَيُعْلِمُوهُمْ أَنَّ قُرَيْشاً سَتَخْرُجُ مَعَهُمْ وَأَنَّ النَّصْرَ أَصْبَحَ حَقِيقَةً وَاقِعَةً .

ـ وَخَرَجَتِ الأَحْزَابُ الَّتِي جمعَها اليَهُودُ لِحَرْبِ الرَّسُولِ وَالْمُسْلِمِينَ . فَلَقَدْ خرجتْ قُرَيْشٌ وَعَلَى رَأْسِهَا أَبُو سُفْيَانَ فِي أَرْبعةِ آلافِ مُجَنَّدٍ وَعَقَدَ اللِّوَاءَ فِي دَارِ النَّدْوَةِ لِعُثْمَانَ بن طَلْحَةَ الَّذِي قُتِلَ أَبُوهُ وهُوَ يَحْمِلُ لِوَاءَ قُرَيشٍ فِي أُحُدٍ . وَخَرَجَتْ بَنُو فَزَارَةَ وعلى رَأْسِهَا عُيَيْنَةُ بنُ حِصن بنُ حُذَيفَةَ فِي رِجَالٍ كَثِيرِينَ وَأَلفِ

بَعِيرٍ . أَمَّا أَشْجَع ومُرَّةٌ فجاءَ كُلٌّ مِنهما في أَرْبَعْمائةِ مُحَارِبٍ يَتَزَعَّمُ الحارِثُ بنُ عَوْفٍ مرَّةَ ويتزعَّم مِسْعَرُ ابنُ رُخَيْلَةَ أَشْجَع . وَجَاءَتْ سُلَيْمٌ أَصْحابُ بِئْرِ مَعُونَة في سَبعِمائَةِ رجل بِقِيادة سفيان بنِ عبدِ شمسٍ واجْتَمَعَ هؤُلاءُ وانحَازَ اليهم بَنو سَعْدٍ وأَسَدَ بقِيادَةِ طُلَيْحَةَ بنِ خويلدٍ الأَسَديَّ . فصاروا في عَشْرةِ آلاف رَجلٍ عَدَا اليَهُود . وسارُوا جَميعاً تَحْتَ إِمْرَةِ أَبِي سُفْيانَ قَاصِدِينَ المَدِينَةِ فَلَمَّا بلَغُوهَا تَداوَلَ زُعماءُ هَذِهِ القَبائِلِ الزَّعَامَةَ أَثْنَاءَ الحَرْبِ كُلَّ يَوماً عَلَى التَّوالي . ولَمَّا سَمِعَ الرَّسُولُ بِنَبَإِ الأَحْزَابِ وَمَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ مِنَ الأَمْرِ الَّذِي زَعَمُوهُ وَهُوَ القَضَاءُ على المُسْلِمِينَ وَعَلَى دَعْوَتِهِ بَدَأَ يُفكِّرُ في مُلاقَاتِهِم . وَفكَّرَ الرَّسُولُ مَلِيّاً بما يَصْنَعُ المُسْلِمُونَ لِمُقَابَلَةِ الأُلوفِ المُؤَلَّفَةِ مِن رِجَالٍ وخَيْلٍ وإِبِلٍ وأَسْلِحَةٍ وَذَخِيرَةٍ ؟ . وَجَمَعَ الرَّسُولُ المُسْلِمِينَ لِيَتَدَاوَلَ مَعَهُمْ الرَّأْيَ فَالْخَطَرُ عَظِيمٌ وقُوَّةُ المُسْلِمِينَ لا تَكْفِي للدفَاعِ عَنِ المَدِينَةِ أَمَامَ هَذِهِ الأُلوفِ مِنَ الأَحْزَابِ

والعَمَلُ عَلَى صَدِّ الأَعْدَاءِ يَقْتَضِي استِعْداداً لا تَقْوم بِهِ طَاقَةُ جَيْشِ المُسْلِمِينَ الصَّغِيرِ . واتَّضَحَ أَمامَ الرَّسُولِ والمُسْلِمِينَ أَنَّ هُنَاكَ وَسِيلَةً واحِدَةً هِيَ اتِّخَاذُ خُطَّةِ الدِّفَاعِ أَيِ احْتِلَالِ المَدِينَةِ والبَقَاءِ دَاخِلَهَا والدِّفاعِ عَنْهَا ومُحَاوَلَةِ صَدِّ هَجَمَاتِ المُعْتَدِين . ولَكِنْ هَلْ يَكْفِي هَذَا لِمُواجَهَةِ القُوَّةِ المُهَاجِمَةِ ؟ سُؤَالٌ تَرَدَّدَ فِي ذِهْنِ الرَّسُولِ وأَخَذَ يُفَكِّرُ فِي الإجَابَةِ عَلَيْهِ بِعَقْلِيَّةِ القَائِدِ المُحَارِبِ الشُّجَاعِ . وبَحَثَ الرَّسُولُ هَذَا المَوْقِفَ الصَّعْبَ مَعَ أَصْحَابِهِ وتَشَاوَرَ مَعَهُمْ وفِي النِّهَايَةِ كَانَ الحَلُّ فِي يَدِ سَلمانَ الفَارِسي . وسَلْمَانُ هَذَا كَانَ حَدِيثَ العَهْدِ بالإِسْلَامِ لَكِنَّهُ كَانَ رَجُلاً فذًّا تَمكَّنَتْ أُصُولُ الدِّينِ الجَدِيدِ مِن نَفْسِهِ . وَكَانَ بَعِيدَ النَّظَرِ . دَائِمَ التَّأَمُّلِ . متحفزَ النفسِ شَوْقاً إِلى الحَقِّ . وَكَان يعرِفُ من أَسَالِيبِ الحُرُوبِ ما انتَهَتْ اليهِ خِبْرَةُ الفُرسِ وتَمَرَّسَتْ بهِ تَجَارِبُهُمْ وقَامَتْ عَلَيْهِ حُرُوبُهم . فَأَشارَ بحفرِ الخَنْدَقِ ولَمْ يَكُنْ حَفْرُ الخَنادقِ مِنَ الأَسَالِيبِ الدِّفاعِيَّةِ المَعْرُوفةِ

عِنْدَ العَرَبِ مِنْ قبل . وَقَالَ سَلْمَانُ للرَّسُول : ـ

ـ يَا رَسُولَ اللهِ نَحْنُ مَعَاشِرَ الفُرْسِ إِذَا دَهَمَنا عَدُوٌّ خَنْدَقْنَا حَوْلَ بَلَدِنَا خَنْدَقاً .

واسْتَصْوَبَ الرَّسُولُ رَأْيَ سَلْمَان فأمَرَ بِحَفْرِ الخَنْدَقِ . وبَدَأَ المُسْلِمُونَ العَمَلَ بِحَفْرِ الخَنْدَقِ بَعْدَ أَنْ أَخَذُوا الآتِ الحَفْرِ مِنْ يَهودِ بَنِي قُرَيظَةَ الَّذِينَ بَقُوا فِي المَدِينَةِ وبَقُوا على وَلَائِهِم . وَقَامَ المُسْلِمُونَ بِحَفْرِ الخَنْدَقِ العَمِيقِ هَذَا بِشَمالِ المَدِينَةِ . لأَنَّ هَذِهِ المِنْطَقَة . كَانَتْ هِيَ المِنْطَقَةُ الوَحِيدَةُ المَكْشُوفَة . إِذْ أَنَّ جِهات المَدِينَةِ الأُخْرَى مُحاطَةٌ بالبَسَاتِينِ الكَثِيفَةِ وبالعَوارِضِ الطَّبِيعِيَّةِ الأُخْرَى وذَلِكَ كَانَ يَحُولُ دُونَ إِمْكَانِ حُدُوثِ القِتَالِ بِقُوَّاتٍ كَبِيرَةٍ . ولِذَلِكَ أَشَارَ سَلمَانُ الفَارِسِيُّ بِحَفْرِ الخَنْدَقِ فِي هَذِهِ المِنطَقَةِ . وقَسَّمَ الرَّسُولُ مِنطقَةَ الحَفْرِ عَلَى أَصْحَابِهِ لِكُلِّ عَشَرَةٍ مِنْهُمْ أَربَعُونَ ذِرَاعاً . واشتَغَلَ هُوَ بالحَفْرِ أَيضاً كَأَيِّ فَردٍ مِنْهُم . فَكَانَ يَرفَعُ التُّرَابَ بِيَدَيهِ ويُشَجِّعُ المُسلِمِينَ ويَدْعُوهُمْ لِمُضَاعَفَةِ

الجُهدِ . وكَانَ المُسلِمُونَ يَستَعِينُونَ بالرَّسُولِ عِنْدَمَا تُصَادِفُهُمْ بَعْضُ العَقَبَاتِ أَثْنَاءَ الحَفْرِ كَظُهُورِ الصُّخُورِ فَيحضُرُ هُوَ بنَفْسِهِ لِتَفتِيتِهَا . وكَانَ العَمَلُ بِحَفْرِ الخَنْدَقِ يَسْتَمِرُّ طِيلَةَ النَّهَارِ . ثُمَّ يَأْوِي المُسلمُونَ لَيلاً الى دُورِهم لِيأْخُذُوا قِسطاً مِنَ الرَّاحَةِ . وَقَدْ سَيْطَرَ الرَّسُولُ بِنَفْسِهِ عَلَى العَمَلِ وَشَهِدَتِ المدِينَةُ منظَراً عَجِيباً وجُوهاً نَاصِعَةً تَضرِبُ الأَرْضَ بالمَعَاوِلِ وتَحمِلُ الزَنَابِيلَ الَّتي يُنقَلُ بهَا التُرابُ وتَتَعَرَّى من لِبَاسِهَا وزِينَتِهَا لِتَلْبَسَ حُللاً من نَسْجِ الغُبَارِ المُتراكِمِ والعَرَقِ . وَعَمِلَ بِحَفْرِ الخَنْدَقِ بَعضُ المُنَافِقِينَ فكَانُوا يَعْمَلُونَ عَملاً ضَعِيفاً . واعتَذَرَ كَثِيرٌ مِنَ المُشرِكِينَ عَنِ الإشتِرَاكِ بالحَفْرِ وكَانَ الرَّسُولُ يَمُرُّ بينَ المُسلِمِينَ وهُوَ يُرَدِّدُ : ـ

ـ اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إلَّا عَيْشُ الآخِرَةِ .

وخِلَالَ الحَفْرِ رَأَى الرَّسُولُ مَا بالصَّحَابَةِ من تَعَبٍ وجُوعٍ لأَنَّ الزَّمَنَ كَانَ زَمَنُ عُسْرَةٍ والعَامُ عَامَ مَجَاعَةٍ فقَالَ : ـ



ـ اللَّهُمَّ لَا عيشَ إلا عيشُ الآخِرَةِ
فَأرحَمِ الأَنْصارَ والْمهَاجِرَة .

فأَجَابَهُ الصَّحَابةُ بِقَوْلِهِم : ـ

ـ نَحْنُ الَّذِينَ بَايَعنَا مُحَمَّداً
عَلَى الجِهَادِ ما بَقِينَا أَبداً .

ـ وكَانَ الرَّسُولُ وهْوَ يَنقُلْ التُّرَابَ بِنَفْسِهِ والغُبَارُ قَدْ غَطَّى جَسَدَهُ يقُولْ : ـ

اللَّهُمَّ لَولَا أَنتَ مَا اهْتَدَيْنَا
وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا
فأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا
وثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِذْ لَاقينَا
والْمشرِكُونَ قَدْ بَغَوا عَلَيْنَا
وإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبيْنَا .

وبِهَذَا الدَّأَبِ والجُهْدِ الْمُتَصِلِ تَمَّ حَفْرُ الخَنْدَقِ في سِتَّةِ أَيَّامٍ .

وفي هَذِهِ الأَثْنَاء حَصَّنَ الْمسْلِمُونَ كَذَلِكَ جُدرَانَ المَنَازِلِ الَّتي تَقَعُ بِمُوَاجَهَةِ العَدوِّ . والَّتِي بينَهَا وبَيْنَ الخَنْدَقِ فرسَخَانِ فَقَطْ . ولَقَدْ أُخلِيتِ المَنَازِلُ الَّتي ظَلَّتْ فيمَا وَرَاءَ الخَنْدَق . وجِيءَ بالنِّسَاءِ والأَطْفَالِ إلى هَذِهِ المَنَازِلِ الَّتي حُصِّنَتْ ووُضِعَتْ الأَحْجَارُ إلى جَانِبِ الخندَقِ من نَاحِيَةِ المَدِينَةِ حتَّى تَكونَ سِلاَحاً يُرمَى بِهِ عِندَ الحَاجَةِ إِلَيْهِ .

ـ واقبَلت قُرَيشٌ وأَحْزَابُهَا وهي تَرجو أَن تلقَى الرَّسولَ والْمُسْلِمِينَ عِندَ جَبَل أُحُدٍ فَلَمْ تَجِدْ هُنَاكَ أَحَداً فَأَكْمَلَتْ مسيرَهَا إِلى المَدِينَةِ وعِنْدَهَا فاجَأَهَا الخَنْدَقْ فَعَجِبَتْ لِذلِكَ لأَنَّهَا لمْ تَكُنْ تَتوقَّعْ هَذَا النَّوعَ من الدِّفَاعِ المَجْهُولِ لَهَا . وبَلَغَ الغَيْظُ مِنْ قُرَيشٍ حَتَّى زَعَمَتْ أَنَّ الإِحْتِمَاءَ وَرَاءَ الخَنْدَقِ جُبْنٌ لا عَهْدَ للعربِ بِهِ وقَالَ بَعضُ الْمشركينَ : ـ

ـ واللهِ إِنَّ هَذِهِ لَمَكِيدَةٌ مَا كَانَتِ العَربُ تكيدُ بِهَا .

وَعَسْكَرَتْ قُرَيشٌ ومَنْ تَبِعَهَا في مكَانٍ يُدعَى

مُجتمَعُ السُّيول . وعَسكَرَتْ غطَفَانْ ومن تبِعَهَا من أَهْلِ نَجْدٍ في مكانٍ آخرَ يُدعى بذَنَبِ نَقَمى . أَمَّا الرَّسُولُ فَإِنَّهُ خرَجَ في ثَلاثةِ آلافِ رَجُلٍ من الْمسلِمينَ بَعدَ أَنِ اسْتَخلَفَ في المَدِينَةِ ابنَ أُمِّ مَكتُومٍ . فَجعَلَ ظَهْرَهُ إلى هَضَبةِ سَلْعٍ . وَجعَلَ الخَندَقَ بَينَهُ وبَينَ أَعْدَائِهِ . وفي هَذَا المَكَانِ نَزَلَ الرَّسُولُ فنُصِبَتْ لَهُ خَيْمَةٌ حمراءُ . وكَانَ لِواءُ الْمُهَاجِرينَ في جَيْشِ الْمسلِمينَ بيدِ زَيدِ بنِ حَارِثَةَ . ولواءُ الأَنْصَارِ بيدِ سَعدٍ بنِ عُبادَةَ . ورأَتْ قرَيْشٌ والعربُ مَعَهَا أَنْ لَا سبيلَ إِلى اجتِيَازِ الخَندَقِ . فأكتَفَتْ بتَبَادُلِ التَّرامي بالنِّبالِ مَعَ الْمسْلِمِينَ عِدَّةَ أَيامٍ مُتَتَابِعَةٍ . وأَيْقَنَ أَبُو سُفْيَان والَّذِينَ مَعَهُ أَنَّهُمْ مُقِيمُونَ أَمَامَ المَدِينَة وخَنْدَقِهَا طَوِيلاً دُونَ أَنْ يَستَطِيعُوا اقْتِحَامَهَا في زَمَنٍ اقبلَتْ فِيهِ طَلَائِعُ الشِّتَاءِ . وَلَيْسَ لَهُمْ مَا يَحْتَمُونَ بِهِ مِنَ البَرْدِ والأَمْطَارِ إِلاَّ هَذِهِ الخِيَامُ الَّتي لاتُغْنِي شَيْئاً كَثِيراً وَلَا تَدْفَعُ أَخطارَ السُّيولِ العَوَاصِفِ . وَكَانَ أَكثَرَ ما يُرَوِّعُ هَؤُلاءِ اليَهُود الَّذِينَ

اسْتَطَاعُوا أَنْ يَجْمَعُوا الأَحْزَابَ أَنْ يَطُولَ بِهَا الإِنْتِظَارَ فَتَملَّ وَتَيْأَسَ . وَمِنْ ثَمَّ تَعُودُ مِنْ حَيْثُ أَتَتْ دُونَ أَنْ تَقُومَ بِأَيِّ عَمَلٍ فِيهِ تَدمِيرٌ وَأَذَى لِلْمسلمِينَ . وفَكَّرَ اليَهُودُ بِأَنَّ الْمسْلِمِينَ فِي دِيَارِهِمْ وَوَسَائِلُ العَيْشِ مَوْفُورَةٌ لَدَيْهِم . وبَنو قُرَيْظَة حلَفَاؤهُمْ يَمُدُّونَهُمْ بالمُؤونَةِ ويُقَدِّمُونَ إِلَيْهِمْ مَا يَحْتَاجُونَهُ . وفي هَذَا ضَيَاعُ كُلِّ أَمَلٍ بالقَضَاءِ عَلَى الْمسْلِمِينَ فَإِذَا ذَهَبَتْ هَذِهِ الفُرْصَةُ مِنْ أَيدِيهِم وقَدْ وَصَلُوا بِهَا إِلى حَشْدِ هَذَا الجَيْشِ الكَبِيرِ . فَلَا يَبقَى لَهُم إِلاَّ أَن يَسْتَسْلِمُوا لِيَأْسٍ مَرِيرٍ يَنْتَظِرُونَ مَعَهُ الجَزَاءَ العَادِلَ إِذَنْ مَا العَمَلُ ؟ وكَانَ الحلُّ الَّذِي أَرْضَاهُمْ وضَمِنَ لَهُمْ بَقَاءَ الأَحْزَابِ فَاتَّفَقُوا على اسْتِمَالَةِ بَنِي قُرَيْظَة وإِقْنَاعِهِم بِالخُرُوجِ مِنْ عَهْدِ الرَّسُولِ والإِنْضِمَامِ إِلى صُفُوفِ الْمُشْرِكِينَ . وكَانَتْ هَذِهِ المَكِيدَةُ كُلُّهَا مِنْ تَدْبِيرِ حُيي بنِ اخطبْ . وسُرَّتْ قُرَيْشٌ وغَطَفَانُ بِمَا دَبَّرَهُ حيي . وسَارَعَ هَذَا بالذِّهَابِ الى كعبِ بنِ اسدٍ صَاحِبِ عَقدِ بَنِي قُرَيْظَة . وأَغْلَقَ كعبُ بابَ حِصنِهِ

أوَّلَ مَا عَرِفَ بقدومِ حيي عَلَيْهِ فَقَدْ رَأَى أَنَّ غَدْرَ قُرَيْظَةَ بالرَّسُولِ وبنقضها وانضمامها إلى عدوه قد يفيدها ويفيدُ اليهودَ إذَا دَارَتِ الدَّوَائِرُ على المُسْلِمِينَ . لَكِنَّهُ جَدِيرٌ أَن يَمْحُوهَا مَحواً إِذَا هُزِمَت الأَحْزَابُ . وانْصَرَفَتْ قُوَّاتُهَا عَنِ المَدِينَةِ ولَبِثَ حُيَيُ بِبَابِ كَعْبٍ يُغرِيهِ حَتَّى فَتَح لَهُ باب الحِصْنِ فَلاقَاهُ وقَالَ لَهُ : ـ

ـ وَيْحَكَ يَا كَعْبُ جِئْتُكَ بِعِزِّ الدَّهْرِ وبِبَحْرٍ طَامٍ جِئْتُكَ بقُرَيْشٍ وبِغَطَفَانٍ مَعَ قَادَتِهَا وسَادَتِهَا وقَدْ عَاهَدُوني وعَاقَدُوني عَلَى أَنْ لَا يَبرَحُوا حَتَّى نَسْتَأْصِلَ مُحَمَّداً وَمَنْ مَعَهُ .

وَرَدَّ كَعبٌ على حُيَيٍ قَائِلاً : ـ

ـ جِئْتَنِي وَاللهِ بِذُلِّ الدهْرِ وَيحْك يا حُيَيْ دَعْنِي وَمَا أَنَا عَلَيْهِ فَإِنِّي لَمْ أَرَ مِن مُحمَّدٍ إلاَّ صِدْقاً وَوفاءً .

وَأَخَذَ حُيُ يَعِدُ كَعْباً بالكَثِيرِ مِنَ الوُعودِ وتَرَدَّدَ كَعْبٌ وخَشِيَ مَغَبَّةَ مَا يَدْعُوهُ حُيَيٌ إليهِ . وَرَاحَ حيي يُذَكِّرُ

كعباً بمَا أصَابَ اليَهودَ ومَا يوشِكُ أن يُصِيبَهمْ إن انْتَصرَ المُسْلِمونَ . وَرَاحَ يَصِفُ قُوَّةَ الأَحْزَابِ وعُدَّتَهَا وعَدَدَهَا وَأنَّهَا لَمْ يَمْنَعْهَا غَيْرُ الخَنْدَقِ أَنْ تَقضِيَ في سُوَيعَةٍ عَلَى المُسلِمِينَ جَمِيعاً . وَأَخِيراً لانَ كَعْبٌ فَسَأَلَ حُيَياً قَائِلاً : ـ

ـ وَمَاذَا يَكُونُ إِذَا ارتَدَّتِ الأَحْزَابُ ؟.

هُنَا أَعطَاهُ حُيَيٌّ مَوَاثِيقَهُ وَوَعَدَهُ إِنْ رَجِعَتِ الأَحْزَابُ أَنْ يَأْتِيَ إِلَيْهِ فِي حِصْنِهِ فَيُشَارِكَهُ مَصِيرَهُ وَحَظَّهُ . وتَحَرَّكَتْ فِي نَفْسِ كَعْبٍ يَهُودِيَّتُهُ وَكَيدُهُ فَقَبِلَ ما طَلَبَهُ حُيَيٌّ مِنْهُ فَنَقَضَ عَهْدَهُ مع الرَّسُولِ والمُسلِمِينَ وَخَرَجَ عَنْ حِيادِهِ وأَعْلَنَ ذَلِك . وَوَصَلَ الخَبَرُ إِلى الرَّسُولِ فَساءَهُ أَنْ تَنقُضَ قُرَيظَةُ عَهْدَهُ وتَنْضَمَّ إِلى أَعْدَائِهِ ولَيْسَ بَيْنَهَا وبَينَ المَدِينَةِ مَا يَحُولُ دُونَ اقتِحَامِ الأَحْزَابِ مَوَاقِعَ المُسلِمِينَ . فَبَعَثَ كُلُّ مِن سَعدِ بنِ مُعَاذٍ سَيِّدِ الأَوْسِ ، وسَعدِ بنِ عُبَادَةَ سَيِّدِ الخَزْرَجِ . ومَعَهُمَا عَبدُاللهِ بنُ رَوَاحَةَ ، لِيَقِفُوا لَهُ عَلَى جَلِيَّةِ الأَمْرِ وَقَالَ لَهُمْ : ـ

ـ إِنْطَلِقُوا لِتَنظُرُوا أَحَقٌ مَا بلَغَنَا عَنْ هَؤُلاءِ القَوْمِ أَمْ لا .

وَلَمَّا وَصَلَ هَؤُلاءِ الرُّسُلِ إلى بني قُرَيظَة وَجَدُوهم عَلَى أَخْبَثِ مَا بَلَغَهُمْ عَنْهُم . مُتَنَكِّرِينَ لِمَا كَانَ بَيْنَهم وبَيْنَ الرَّسُولِ حَتَّى أنَّهُمْ عِنْدَمَا ذَكرُوا لَهُمْ عَهْدَهُمْ مَعَ الرَّسُولِ قَالوا : ـ

ـ مَنْ رَسُولُ الله .

وَصَاحَ بَعضُهم : ـ

ـ لَا عَهدَ بيننا وبَينَ محَمَّدٍ ولَا عَقدٌ .

وَحَاوَلَ رُسُلُ المُسلِمِينَ رَدَّ قُرِيظَةَ إلى عَهدِهَا إلاَّ أَنَّ كَعباً طَلَبَ إِلَيهِم أَن يَردُّوا إِخْوَانهم يَهودَ بَني النَّضِيرِ إلى دِيَارِهِم وأَرَادَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ وكَانَ حَلِيفَ قُرَيظَة ، أَنْ يُقْنِعَهَا مَخَافَةَ أَنْ يَحلَّ بهَا مَا حَلَّ ببني النَّضِيرِ أَو مَا هُوَ شَرٌّ مِنهُ . إلاَّ أَنَّ اليَهُودَ بَقُوا عَلَى مَوقِفِهِم وَهُوَ الخُرُوجُ عَلَى العَهْدِ وَنَقْضِهِ . وَرَجَعَ رُسُلُ الرَّسُولِ

وأبْلَغوهُ بِمَا رَأَوا وَسَمِعوا . وَهُنَا عَظُمَ البَلاءُ واشتَدَّ الخَوفُ وَرَأَى أَهلُ المَدِينَةِ طَرِيقَ قُرَيْظَةَ وَقَدْ فُتِحَ للأَحْزَابِ فَدَخَلوا عليهم واستأْصَلوهُم ولَم يَكُنْ ذَلِكَ مَحْضُ خَيَالٍ ووهْم فَهُم رَأَوا قُرَيظَةَ تَقطَعُ عَنْهُمُ المَدَدَ والمُؤونَة ولَعِبَ الشَّكُّ بِرُؤوسِ الضِّعَافِ في العَقِيدَةِ مِنَ المُسْلِمِينَ فخافُوا وقَالَ رِجَالٌ مِنْهُمْ لأَهْلِ المَدِينَةِ : ـ

ـ يَا أَهلَ يَثْرِب لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا إلى مَنَازِلِكُمْ .

وبِإِنضِمامِ بَنِي قُرَيظَةَ إلى الأَحْزَابِ ارْتَفَعَت رُوحُ قُرَيْشٍ وغَطَفَانَ العَسْكَرِيَّةِ فَأَخَذُوا يُعِدُّونَ أَنْفُسَهم للقِتَالِ واستَمْهلتْ قُرَيظَةُ الأَحْزابَ عَشَرَةَ أَيَّامٍ كَي تُعِدَّ فِيها عُدَّتَهَا عَلى أَنْ تُقَاتِلَ الأَحْزَابُ المُسلِمينَ في هَذِهِ الأَيَّامِ العَشَرَةِ اشَدَّ القِتَالِ . وَذَلِكَ ما حَدَثَ فَقَدْ أَلَّفَ المُشرِكُونَ ثَلاثَ كَتَائِبَ لِمُحَارَبَةِ الرَّسُولِ . فَأَتَتْ كَتِيبَةُ ابنِ الأَعْوَرِ السُّلَمِيِّ مِنْ فَوقِ الوَادِي . وأَتَتْ كَتِيبَةُ عُيَيْنَةَ بنْ حِصْنٍ مِنَ الجَنْبِ . وَبَقِيَتْ الكَتِيبَةُ

الثَّالِثَةِ بِقِيَادَةِ أَبِي سُفْيَان بِجَانِبِ الخَنْدَقِ . وتَعقَّدَ موْقِفُ الْمسْلِمِينَ كَثِيراً . وفي هَذَا المَوْقِفِ نزَلَت هَذِهِ الآيَاتُ « إِذْ جَاؤُكمْ مِنْ فوْقِكمْ وَمِنْ أَسْفَل مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغتِ الأَبْصَارُ وبَلَغَتْ الْقُلوبُ الْحَنَاجِرَ وتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً . وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً . وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَاراً » وَلأَهْلِ يَثْرِب أَبلَغَ الْعُذرِ إِنْ هُمْ بَلَغَ مِنْهُم الفَزَعُ وزُلزِلَت قُلوبُهم . أَلَيْسَ هُوَ المَوْتُ الَّذِي يرَونَه آتِياً عليهِم مِنْ بريقِ هَذِهِ السُّيوفِ الَّتِي تَلْمَعُ فِي أَيْدِي قُرَيْشٍ وغَطَفَان . والفَزَعُ الأَكبَر كَانَ قَدْ دَاخَلَ قُلوبَ الْمسْلِمِينَ حِينَمَا عَلِمُوا بِأَنَّ غَدْرَ بَنِي قُرَيظَة قَد أَوصَلَهُم إِلَى التَّحَالُفِ الكَامِلِ مع الأَحْزَابِ الَّتِي أَتَتْ بجُمُوعِها لِغَزْوِ المَدِينَةِ واستِئْصَالِ الْمسْلِمِينَ . وَسَمَت روحُ

الأَحْزَابِ المَعنويَة . وفي هذهِ الأَثْنَاءِ دَفَعَتِ الحَمِيَّة بِفَارِسِ الأَحْزَاب عَمْرُو بنْ ودٍّ إلى أَنْ يَقْتَحِمَ الخَنْدَق . وكَانَ قَدْ شَهِدَ بَدراً فَأُصِيبَ بِجِرَاحٍ مَنَعَتْهُ من حُضُورِ أُحُدٍ فَحَضَرَ الخَنْدَقَ فلمَّا كانَ هَذَا اليوْم خَرج ومعَهُ ضِرارُ بنْ الخَطَّاب . وعِكرِمَةُ بنْ أَبِي جهلٍ . وهبيرَةُ بنْ أَبِي وهب . فطَافُوا حولَ الخَنْدَقِ حَتَّى وَصَلُوا إِلى مَكَانٍ ضَيِّقٍ أَكْرَهُوا خُيُولَهم عَلَى عُبُورِهِ . فَوَثَبَتْ هَذِهِ بِهِمْ حتّى اجْتَازَتْهُ وصَارُوا مَعَ المُسْلِمِينَ عَلى أَرضٍ وَاحِدَةٍ وكَانَ الرَّسُولُ جَالِساً وأَصْحَابُهُ حَولَهُ فتَقَدَّمَ عمْرُو بنْ ودٍ ودَعَا المُسْلِمِينَ الى البرَازِ وكَرَّرَ النِّدَاءَ عِدَّة مرَاتٍ فَلَمْ يَتَقَدَّمْ مِنهُ أَحدٌ عِنْدَهَا وَقَفَ عليٌّ بنْ أَبي طَالِبٍ وقَالَ لرَسُولِ اللهِ : —

— أَنَا أُبَارِزُهُ يا رَسُولَ الله .

فَلَمْ يأْذَنْ لَهُ الرَّسُولُ وأَمَرَهُ بالجُلُوسِ . وأَعَادَ عمْرُو النداءَ ينقضُّ بِهِ على اسمَاعِ المُسْلِمِينْ ثُمَّ قَالَ لَهمْ : —

ـ أَيُّهَا النَّاس إِنَّكم تزعمُونَ أَنَّ قتلاكُمْ فِي الجَنَّةِ وَقَتْلانَا في النَّارِ أَفمَا يُحِبُّ أَحدُكُمْ أَنْ يُقْدِمَ على الجَنَّةِ أَوْ يُقَدِّم عَدُوّاً لَهُ إِلى النَّارِ .

فَجَمِدَ القومُ في مَجَالِسِهِم كَأَنَّ على رؤُوسِهِم الطَّيرُ وَقَامَ عليٌّ للمَرَّةِ الثَّانِيَة وقَالَ : ـ

ـ أَنَا لَهُ يا رَسُولَ الله .

فأَمَرَهُ الرَّسُولُ بالجُلوسِ وَرَاح عمرٌو يجُولُ بفَرَسِهِ وأَقبل عُظَمَاءُ الأَحْزَابِ فَوقَفتْ من وَرَاءِ الخَنْدَقِ ومدَّتْ أَعْنَاقَهَا إِلى فَارِسِهَا تنظُرُ إِليهِ بإعْجابِ مُكَبِّرةً فيهِ شَجَاعَتَه الَّتِي تحدَّى فِيهَا أُلوف الرِّجَالِ وراح عمْرو يَدْعُو بِجديَّةٍ وعَنجَهِيَّةٍ لِلمُبارَزَة فقَامَ عليٌّ للمرةِ الثَّالثة وقَالَ للرَّسُول : ـ

ـ يَا رَسُولَ اللهَ ائْذَنْ لِي فِي مُبارزتِهِ .

وقَالَ الرَّسُولُ لِعَلي : ـ

ـ إِذْنٍ .



وعِنْدَمَا دَنَا عليٌّ من الرَّسُولِ قلّدَهُ سيفهُ وقَالَ : ـ

ـ اللّهُمَّ أَعِنْهُ هَذَا أَخِي وابنُ عمّي فلا تذرني فَرداً وأَنتَ خيرُ الوَارِثِين .

والتَقَى عليٌّ بفارِسِ الأَحزابِ عمرُو بنُ ودٍّ ولمَّا رآهُ هَذَا قَالَ لَهُ : ـ

ـ مَنْ أَنتْ .

فَقَالَ عَليٌّ : ـ

ـ أَنَا عليُّ بنُ أَبي طَالِب .

فأَجَابَ عَمرو : ـ

ـ أَجل لَقَدْ كَانَ أَبوك نديماً لِي وصَدِيقاً فأَرجِع فَإِنِي لا أُحِبُّ أَن أَقتلَك .

فقَالَ لَهُ عليٌّ : ـ

ـ لَكِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَقتُلَكَ .

وَبَدَأَ القِتَالُ بَينَ الفارِسَين ، وعَلا الغُبارُ وراحَ

الجَمِيعُ يَنتظِرُونَ النَّتيجَةَ . وبَعْدَ قَلِيل سَمِعَ النَّاسُ التَّكبيرَ عَالِياً فكَبَّرَ المُسلمُونَ . وعَلِمُوا أَن عَلياً قَتَلَ عَمْرو وانجَلى الغُبارُ . وأَبصرَ النَّاسُ علياَ وهوَ يَحملُ بَيْنَ يَديْهِ رَأْسَ فَارِسِ الأَحْزَابِ والمُشْرِكِينَ عمرو بنِ ودٍّ . ولَمَّا رَأَى أَصْحَابُ عَمروٍ مَصرعَهُ امتَلَكَهُم الرُّعبُ . فأَطلَقُوا الأَعِنَّة لِخُيُولِهِم يُرِيدُونَ النَّجاةَ ومَلِكُ المَوتِ يُلاحِقُهُمْ وكَأَنَّ سَيفَ عَليّ صَاعِقَةٌ تكَادُ تَهوي على رؤُوسِهِم . حتَّى انتهَوا إِلَى الخَندَقِ فَعَبَرُوهُ وَهُمْ لاَ يُصَدِّقُونَ أَنْفُسَهم انَّهم نَجَوا تَارِكِينَ وَرَاءَهُمْ جُثَّةَ عمروٍ بنِ ودٍ وأَرسلَت الأَحْزَابُ الى الرَّسُولِ يَشتَرُونَ رُفاتَ عمرٍو فقَالَ الرَّسُولُ : ـ

ـ هُوَ لَكُمْ ولاَ نَأْكلُ ثمنَ الموتَى .

وبَعدَمَا غَرَبَتِ الشمسُ أَقبلَ نوفلُ بنُ عبدِاللّهِ بنِ المُغيرةِ عَلَى فرَسٍ لَهُ يريدُ أَنْ يَجْتَازَ الخَنْدَقَ وَكَانَ من المُشْرِكِينَ فلم يَنْجحْ وهَوَى هُوَ وَفَرَسُهُ فيهِ فَصَرعا

وَتحطّمَا وأرسَلَ أَبو سفيَانٍ يَعرِضُ ديَتَهُ مَائةَ من الإِبلِ فَرَفضَ الرَّسُولُ ذَلِك وقَالَ : ـ

ـ خذُوهُ فإِنَّهُ خبيثٌ .

وأعضَت الأَحزابُ نِيرانها مُبالَغةَ في تخْويفِ المُسْلِمِينْ وأَضْعَافاً لرُوحِهِم وبَدأَ المُتحمِّسُونَ مِنْ يهودِ بني قُرِيظَة ينزِلونَ من حُصونِهم إِلى مَنَازِلِ المَدِينَةِ القَرِيبَةِ مِنهُم يُريدُون إِرْهَابَ أَهْلِها . وكَانَتْ صَفيَّةُ بنتُ عبدِ المُطّلبِ في حِصنِ حسّانَ بن ثَابتٍ وكَانَ حَسَّانُ فيهِ مع النِّساءِ والأَولادِ فمرَّ بهِم يهودِيٌّ وأَخذَ يَطوفُ حَولَ الحِصنِ فرأَتْهُ صَفيَّةُ وأَخبرَتْ حَسَّاناً بذَلِكَ وقَالَتْ لَهُ : ـ

ـ إِنَّ هذا اليَهوديَّ يَطوفُ يا حَسَّان بالحِصنِ كَمَا تَرى وإِني واللهِ مَا آمِنَهُ أَنْ يَدُلَّ على عورَتِنا مِنْ وَرَائِنَا مِنَ اليَهُود ورسولُ اللهِ وأَصْحابه قد شُغِلوا عنّا فأَنزِلْ اليهِ فاقتُله .

فَقَالَ حَسَّانٌ : ـ

ـ يَغفِرُ اللهُ لَكِ يا بنتَ عبدِ الْمطَّلب واللهِ لَقَدْ عَرفْتِ ما أَنَا بِصَاحِبِ هذَا .

فَأَخَذَت صَفِيَّةُ رُمْحاً ونزلتْ من الحِصنِ وطَعَنتْ اليَهُودِيَّ فقَتَلَتْه فلمَّا رجعَت قَالَتْ لِحسَّانٍ : ـ

ـ يَا حَسَّانُ انزِلْ فَأَسْلُبْهُ فإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعَني مِنْ سَلْبِهِ إلاَّ أَنَّهُ رَجُلٌ .

فقَالَ لَهَا حَسَّانٌ : ـ

ـ مَالِي يا بنتَ عبدَ الْمطَّلبِ بسَلبِهِ مِن حَاجَةٍ .

وظَلَّ أَهْلُ المَدِينَةِ فِي فَزَعِهِم . عَلَى حِين أَخَذَ الرَّسُولُ يُفكِّرُ في وَسِيلَةٍ سَرِيعَةٍ تُوصِلُ المُسلِمِينَ إلى الخَلاَصِ . ولَمْ تَكُنِ الوسيلَةُ مُواجهةُ العَدُوِّ بطبيعةِ الحَالِ . فلتَكُنِ الحِيلَةُ إذاً واتَّجَهَ الرَّسُولُ إلى أَعدَائِهِ يُحَاوِلُ أَنْ يُفرِّقَ بينَهُم بَعدَ أَن أُخبِرَ أَنَّ غطَفَاناً قَدْ بَدَأَتْ تَملُّ من طُولِ الحِصارِ . وتُظهِرُ امتِعَاضاً وبَعَثَ

الرَّسُولُ الى غَطَفَانٍ يَعِدُهَا بِثُلْثِ ثِمَارِ الْمَدِينَةِ إِنْ هِيَ ارتحلَتْ . ولَكِنَّ هَذِهِ الْمُفَاوَضات ما لَبِثَتْ أَنْ تعثَّرَتْ .

وَطَرَقَ الرَّسُولُ وَسِيلَةً أُخرَى يُفَرِّقُ بِهَا بيْنَ أَعْدَائِهِ . إنَّ قُريشاً نَجحَتْ في أَنْ تضُمَّ بني قُرَيظَةَ إِلَيهَا فَلِماذَا لا يَفْعَلُ فِعْلَهَا ويُبَاعِدُ مَا بَيْنَ قُرَيْشٍ وقُرَيظَةَ . أَدْرَكَ الرَّسُولُ أَنَّ الحَرْبَ خِدْعَةٌ وقَرَّرَ أَنْ يَسْتَخْدِمَ هَذَا المَبْدَأَ فانْتَهَزَ فُرْصَةَ قُدومِ نُعَيْمِ بنِ مَسْعُودٍ اليهِ يُعْلِنُ اسْلامَهُ ويَقُولُ : —

— يا رَسُولَ اللهِ إِنَّ قَومي لمْ يَعْلَموا بإِسْلامِي فَمُرْني بِمَا شِئْتَ . ثُمَّ أَنَّ نُعَيْماً ذَهَبَ بِأَمرِ الرَّسُولِ إِلى بَني قُرَيظَة وكَانَتْ لاَ تَعْرِفُ أَنَّهُ أَسْلَمَ . وكَانَ لَهَا نَدِيماً في الجَاهِلِيَّةِ . فَذَكَّرَهُمْ بِمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُم مِنْ مَوَدَّةٍ . ثُمَّ ذَكَرَ لَهُمْ انَّهُمْ نَاصَرُوا وآزَرُوا قُرَيْشاً وَغَطَفَاناً عَلى الرَّسُولِ والْمسلمِينَ . وقُرَيْشٌ وغطَفَان رُبَّمَا لاَ تُطِيقَانِ الْمُقَامَ طَوِيلاً فَترتَحِلانِ وبِذَلِكَ يبْقَى

يَهُودُ قُرَيظَةَ وحِيدِينَ أَمَامَ المسلمِينَ . ونَصَحَ نُعَيْمٌ بني قُرَيظَةَ بأَنْ لاَ يُقَاتِلوا مَعَ القَوْمِ حتَّى يأْخُذُوا مِنْهُمْ رُهَنَاءَ مِنْ أَشْرَافِهِم يَكُونون بأَيدِيهِم حتَّى لاَ تتخلَّى قُرَيْشٌ وغَطَفَانُ عَنهم . واقْتَنَعَتْ قُرَيظَةُ بمَا قَالَ نُعيمٌ ثُمَّ ذَهَبَ هَذَا إِلى قُرَيشٍ فأَسَرَّ لَهُمْ أَن يَهُودَ بَني قُرَيظَةَ نَدِمُوا عَلَى مَا فَعَلُوا مِنْ نَكْثِ عَهْدِ الرَّسُولِ وأَنَّهُمْ عَامِلُونَ لإِستِرْضَائِهِ وكَسْبِ مَوَدَّتِهِ بأَنْ يُقَدِّمُوا لَهُ عَدَداً مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ كَيْ يَضرِبَ أَعنَاقَهُمْ . ولِذَلِكَ نَصَحَ لَهُمْ إِنْ بَعَثَتْ إِلَيهِم اليَهُودُ يَلْتَمِسُونَ رَهَائِنَ مِنْ رِجَالِهِمْ أَلاَّ يَبْعَثُوا مِنْهُم أَحَداً . وصَنَعَ نُعَيمٌ مَعَ غَطَفَانٍ مِثْلَمَا صَنَعَ مَعَ قُرَيْشٍ وحَذَّرَهُمْ مِثْلَمَا حَذَّرَ قُرَيْش . ودَبَّتِ الشُّبْهَةُ مِنْ كَلاَمِ نُعَيمٍ إِلى نُفُوسِ قُرَيْشٍ وغَطَفَانٍ فَتَشَاوَرَ زُعَمَاؤُهُمْ وأَرسَلَ أَبو سُفْيَان إِلى كَعْب سَيِّدِ بَني قُرَيظَةَ يَقُولُ لَهُ : ـ

ـ يَا كَعْبُ لَقَدْ طَالَت إِقَامَتُنا وحِصَارُنا هَذَا الرَّجُل وقَدْ رَأَيْتُ أَنْ تَعْمَدُوا إِليهِ في الغداةِ ونَحْنُ مِنْ وَرَائِكُمْ .

فَعَادَ رَسُولُ أَبي سُفيَان اليهِ بقولِ كَعبٍ زعيمِ قُرَيظَة : ـ

ـ إنَّ غداً السَّبْت ونَحنُ لَا نستَطِيعُ القِتَال والعَمَلَ يَوْمَ السَّبْت .

فَغَضِبَ أَبُو سُفيَانَ وصَدَّقَ حَدِيثَ نُعَيم وأَعَادَ رَسُولَهُ كَي يَقُولَ لِقُرَيْظَة : ـ

ـ اجعلُوا سَبتاً مَكان هَذا السَّبت فإنَّه لَا بُدَّ مِنْ قِتَالِ مُحَمَّدٍغَداً . ولَئِن خَرَجْنا لِقتالِهِ ولَسْتمْ مَعنَا لنَبْدأَنَّ مِنْ خَلفِكُمْ ولنَبْدأَنَّ بكُمْ قَبْلَ مُحمَّدٍ .

فَلمَّا سَمِعتْ قُرَيظَة كَلَام أَبي سُفْيَان كَرَّرَتْ رَفْضَها وكَانَ الجَوابُ أَنَّهَا لَا تعتَدِي واليومُ يومُ سَبت ثُمَّ أَشَاروا إلى مَوضُوعِ الرَّهَائِنِ الَّذِي أَشار عليهم نعيمٌ بِهِ حَتَّى يَطْمئنُوا لِمَصِيرِهم . فَلَمَّا سَمِعَ ذلكَ أَبُو سُفْيَان لَمْ يَبقَ لَديَهِ في كَلَام نُعَيْم رِيبَة وبات يُفكِّرُ مَاذا عَسَاهُ يَصْنَعُ ؟ وَجَاءَ أَبُو سُفْيَان إلى غطَفَان فإذا بهَا هِيَ الأُخْرَى

تَتَرَدَّدْ في الإقدامِ عَلَى قِتَالِ الرَّسُولِ والْمسْلِمِينَ . فَلَمَّا كَانَ الليلُ والوَقتُ وَقتَ شِتَاءٍ وبَردٍ عَصَفَتِ الرِّيَاحُ الشَّدِيدة . وهَطَلَ المَطَرُ الغَزِيرُ . وقَصَفَ الرَّعْدُ . ولمع البَرْقُ . وبدأَتِ العَوَاصِفُ الرَّمْلِيَّةُ تُهَدِّمُ خِيَامَ الأَحزَابِ وتُطْفِيءُ نِيرَانهم وتَمْلأُ عُيُونَهم . واشْتَدَّتِ الرِّيحُ واظلَمَتِ الدُّنْيَا ودَاخلَ الرُّعبُ قلُوبَ الْمشرِكِين وخُيِّلَ إِلَيهِم أَنَّ الْمسْلِمِينَ انتهزُوها فُرصَةً لِيَعْبُرُوا إِليهِم . فقَامَ طُلَيْحَةُ بن خُوَيلِد يُنادِي : ـ

ـ أَنَّ مُحَمَّداً قَدْ بدأَكُمْ بِشَرٍّ فالنَّجَاةُ النجَاة .

وعِنْدَمَا رَأَى أَبُو سفيان أَنَّ الأَمرَ يَزْدَادُ سُوْءاً رَاحَ يَصْرُخُ بِأَعْلَى صوتِهِ في النَّاسِ : ـ

ـ يَا مَعْشَرَ قُرَيشٍ ارْتَحِلُوا فإِنِّي مُرْتَحِلٌ .

وأَخذَ النَّاسُ يَرحَلُونَ بِمَا استَطَاعُوا حَمْلَهُ مِن مَتَاعٍ وانطَلَقُوا وَمَا تَزَالُ الريحُ تَعْصِفُ بِهِم وفَرُّوا وتَبِعَتْهُم غَطَفَانُ والأَحْزَابُ ولمَّا طَلَعَ الصُّبْحُ ولَمْ

يَجِدِ الرَّسُولُ والْمُسْلِمُونَ مِنْهُم أَحداً هَتَفَ رَسُولُ اللهِ يَقُولُ : ـ

ـ لَا إِلَه إِلَّا الله وَحْدَهُ . صَدَقَ وَعْدَهُ . ونَصَرَ عَبدَهُ . وأَعَزَّ جُنْدَهُ . وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ . فَلَا شَيءَ بَعْدَهُ .

وَعَادَتْ الطُّمَأْنِينَةُ إِلى النُّفُوسِ وظَهَرَتْ خَيْبَةُ الأَحْزَابِ بَعْدَ أَنْ أَقْبَلَتْ مِنْ كُلِّ صَوبٍ لِتَجْتَاحَ المَدِينَةَ وظَهَرَتْ صَلَابَةُ الْمسلمينَ في مُواجَهَةِ الأَزَمَاتِ الْمرهقَةِ وقَالَ الرَّسُولُ بَعْدَ هَذَا الفَوْزِ الكَبِيرِ : ـ

ـ الآنَ نَغزُوهم وَلَا يغزُونَنَا .

وعَادَ الرَّسُولُ والْمُسْلِمُونَ إِلَى المَدِينَةِ وَهُمْ يرفَعُونَ الشُّكْرَ إِلى اللهِ الَّذِي كَشَفَ الضُّرَّ عَنْهُم وكَفَاهُم شَرَّ قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ . وبَعدَ ارتِدَادِ قُرَيشٍ والأَحْزَابِ عَنِ المَدِينَةِ بَعَثَ أَبُو سُفيان بِكِتَابٍ إِلى الرَّسُولِ يَقُولُ لَهُ فِيهِ : ـ

« لَقَدْ سِرتُ اليكَ فِي جَمْعٍ وأَنَا أُرِيدُ أَلا أَعُودَ

أَبداً حتَّى أَسْتَأْصِلَكُمْ فرَأَيْتُك ولَقَدْ كَرِهْتَ واعتصمْتَ بالخَندَقِ ومَا فعلتَ هذَا إلا فِراراً مِن سُيوفِنَا ولِقَائِنَا ولَكَ مِني يومٌ كيومِ أُحُدٍ » .

ورَدَّ عليهِ الرَّسُولُ بِقَوْلِهِ : ـ

« أَتَانِي كِتَابُكَ وقَديماً غرَّكَ باللهِ الغَرُورُ أَمَّا مَا ذَكَرْتَ أَنَّكَ سِرْتَ إِلَيْنَا وأَنْتَ لا تُرِيدُ حتَّى تستأْصِلَنَا فذَلِكَ أَمرٌ يَحُولُ اللهُ تَعالَى بَينَكَ وبَيْنَه ويَجْعَلُ لنَا العَاقِبَة وليَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ يَوْمٌ أُكَسِّرُ فِيهِ اللاَّتَ والْعُزَى ونَائِلَة وهُبَل » .

ـ بَقِيَ اليَهُودُ مِنْ بَني قُرَيظَة وَحدَهُم بَعْدَ انسِحَابِ الأَحْزَابِ وبَقِيَ مَعَهُمْ غَدرُهُم الشَّنِيعُ الَّذِي فَضَحَ نيَاتِهِم فَأَصْبَحُوا كَالْمجرمِ الَّذِي ثَبَتَتْ إِدَانَتُه فَهُوَ يَرْقُبُ القِصَاصَ العَادِلَ . وبَدَأَ الرَّسُولُ بَعْدَ رَحِيلِ الأَحْزَابِ يُفَكِّرُ فِي مَوقِفِهِ مِنَ اليَهُودِ لَقَدْ أَذْهَبَ اللهُ عَنهُ عَدُوَّهُ الَّذِي كَانَ يُهَدِّدَهُ لكِنَّ اليَهُودَ قَادِرُونَ عَلى أَن يَعُودُوا

لِمِثْلِهَا ثُمَّ إِنَّ بَنِي قُرَيْظَةَ لَوْلَا ارْتِحَالُ الأَحْزَابِ ولَوْلَا مَا وَقَعَ فِي صُفُوفِهَا مِنْ شِقَاقٍ وانْقِسَامٍ كَانَتْ على أُهْبَةِ النُّزُولِ إِلى المَدِينَةِ والفَتْكِ بالمُسْلِمِينَ والمُعَاوَنَةِ عَلَى إِسْتِئْصَالِهِمْ إِذَن لاَ بُدَّ من القَضَاءِ عَلَى بَنِي قُرَيظَة وَأَمَرَ الرَّسُولُ مُؤَذِّناً فَأَذَّنَ فِي النَّاس : ـ

ـ مَنْ كَانَ سَامِعاً مُطِيعاً فَلَا يُصَلِّيَنَّ العَصرَ الا بِبَنِي قُرَيظَة .

وَعَلى الرَّغمِ مِنْ تَعَبِ المُسْلِمِينَ الشَّدِيدِ لِبَقَائِهِم مُدَّةً طَوِيلَةً مُحَاصَرِينَ وَعَلَى الرغمِ من بُرُودَةِ الطَّقْسِ ، فَقَدْ أَسْرَعَ المُسْلِمُونَ بِتَنْفِيذِ أَمْرِ الرَّسُولِ وَخَفُّوا إِلى حِصَارِ بَنِي قُرَيْظَةَ وقِتَالِهِم . وكَانَ يَهُودُ بَنِي قُرَيْظَة يُقِيمُونَ فِي حُصُونٍ مُحَصَّنَةٍ كالَّتِي كَانَتْ لِبَنِي النَّضِيرِ ، لَكِنَّ هَذِهِ الحُصُونَ إِنْ أَغْنَتْهُمْ فِي الدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِهِم فَهِيَ لَنْ تُغنِيهم فِي حَالِ مُهَاجَمَةِ المُسْلِمِينَ لَهَا . وَصَارَ المُسْلِمُونَ يَتَوَافَدُونَ على حُصُونِ بَنِي قُرَيظَةَ حَتَّى اجْتَمَعَ جَمْعُهم عِنْدَهَا فَأَمَرَهُمْ الرَّسُولُ بِحِصَارِهَا :

وظَلَّ هَذَا الحِصَارُ خَمْساً وعِشرِينَ لَيلَةً لَمْ يَقَع خِلاَلَها إِلَّا بَعْضُ التَرَاشُقِ بِالنِّبَالِ والحِجَارَةِ . ولَمْ يَجْرُؤْ بنو قُرَيظَةَ عَلى أَن يَخْرُجوا مِنْ حُصُونِهِم طَوَالَ مُدَّةِ الحِصَارِ وَلَوْ لِمرَّةٍ واحِدَةٍ فَلَمَّا يئِسوا وأَيْقَنوا أَنَّ حُصُونَهُمْ لَنْ تَمنعَ عَنْهُمْ الهَلاكَ وأَنَّهُمْ لا بُدَّ أَنْ يَقَعُوا في قَبْضَةِ المُسْلِمِينَ جَزَاءً لَهُم عَلى غَدْرِهِم وإِنْ طَالَ أَمدُ الحِصَارِ فَبَعَثوا إِلى الرَّسُولِ يَطْلُبونَ إِرسَالَ أَبي لُبابَة رِفَاعَةَ بن عَبدِ المُنْذِر لِيَسْتَشِيرُوهُ بأَمْرِهِم وَكَانَ أَبو لُبَابَة مِنَ الأَوْسِ حُلَفَائِهِم فَلَمَّا حَضَرَ إِلَيهِم قَامَ إِلَيهِ الرِّجَالُ وأَجْهشَتِ النِّسْوَةُ والأَوْلادُ بالْبُكَاءِ حَتَّى رَقَّ أَبو لُبابَة لِحَالِهِم فَقَالُوا لَهُ : ـ

ـ أَتَرَى يا أَبَا لُبابَة أَن نَنْزِلَ عَلى حُكمِ مُحَمَّدٍ .

فَأَجَابَهُم : ـ

ـ نَعَمْ .

وَلَمَّا انصَرَفَ أَبو لُبَابَة قامَ كعبُ بن أَسَد وعَرَضَ عَلى أَصْحَابِهِ أَن يَتْبَعُوا دِينَ الرَّسُولِ والمُسْلِمِينَ وبِذَلِكَ

يأمَنوا على دِمَائِهِم وأَمْوَالِهِم وأَبنَائِهِم فرَفض أَصْحَابُ كَعْبٍ أَنْ يَسْمَعُوا هَذَا الكَلَامَ مِنْهُ وصَاحوا بِهِ :

ـ لا نُفَارِقُ حُكْمَ التَّوْرَاةِ أَبَداً .

فَعَرَضَ كعبٌ عليهِم أَنْ يقتلوا نِسَاءَهم وأَطْفَالَهم ويخرجُوا بعدَ ذَلِكَ لِمقَاتَلَةِ المُسْلِمِينَ فرَفض هَذَا العَرضَ أَيضاً وقيلَ لكَعب : ـ

ـ نَقتلُ هؤلاءِ المَساكِين فَمَا خيرٌ في العيشِ بَعدَهم .

وتَشَاوَرَ القومُ فيمَا بينَهم وقَالَ قائلٌ منهم : ـ

ـ إنَّنَا لَنْ نكُونَ اسْوأَ من بَنِي النَّضِيرِ مَصيراً إنَّ حُلَفَاءَنَا من الأَوْسِ سَيَدْفَعُونَ عنَّا الشَرَّ فأَعرضُوا على مُحَمَّدٍ أَنْ نَرتَحِلَ الى أَذْرِعَاتٍ بالشَّامْ .

وأَخِيراً أَرسَلَ اليَهُودُ يَعرِضُونَ الخُرُوجَ إلى أَذْرِعَاتٍ تَارِكِينَ وَرَاءَهُم ما يَمْلكُونَه . إلا أَنَّ الرَّسُولَ رَفَضَ ذَلِكَ العَرْضَ وطَلَبَ من اليَهُودِ أَنْ يُسَلِّمُوا بِدُونِ قَيْدٍ أَو شَرْطٍ . وعَادَ اليهودُ يَطْلُبُونَ التَّسْلِيمَ على أَنْ

يَحكُمَ سعدُ بنْ مُعَاذْ بمَصِيرِهِم وقَدْ اختَارُوهُ لأَنَّهُ سيِّدُ الأَوسِ حُلَفَائِهِم في الجَاهِلِيَّة لَعَلَّ الرَّسُولَ يقبَلُ من الأَوْسِ مَا قَبِلَ من يَهودِ بَني قَيْنُقَاعَ حُلَفَاءُ الخزْرَج . وقَبِلَ الرسولُ بنزُولِهِم على حُكم سَعْدٍ وقَبِلَ سعدٌ بأَن يَقُومَ بالتَّحْكِيمِ بَينَ المُسْلِمِينَ من جهَةٍ واليَهُودِ مِن جِهَةٍ أُخرَى بَعْدَ أَنْ أَخَذَ المَوَاثِيقَ عَلى الطَّرَفينِ أَنْ يرضى كِلاهُمَا بِقَضَائِهِ . فَلَمَّا أَعطَوهُ المَوَاثيقَ أَمَرَ بَني قُرَيظَةَ بِأَنْ ينزِلُوا من حُصُونِهِم وأَن يَضَعُوا السِّلاحَ فَفَعَلُوا وكَانَ حُكْمُ سَعْدٍ فِيهِم أَنْ يُقتَلَ المُقَاتِلُونَ وتُقْسَمْ الأَموَالُ وتُسبَى الذَرَارِي والنِّسَاء . لأَنَّ سَعْداً ذَكَرَ أَنَّ الأَحْزَابَ لَوْ انْتَصَرَتْ بخِيَانَةِ بَني قُرَيظَةَ لَكَانَ مَصِيرُ المُسْلِمِينَ الإِبَادَةِ مِنَ الوُجُودِ . فَجزَاهُم سَعدُ بِمِثْلِ مَا عَرَّضُوا المُسْلِمِينَ لَهُ . ولَمْ تكُنْ حَربُ بَني قُرَيظَة حَرْبَ مَيْدَانٍ إِنَّمَا كَانَت حَرْبَ أَعْصَابٍ . فَلَمْ يَستَطِعِ اليَهُودُ أَنْ يَتَحَمَّلُوا الحِصَارَ عَلَى الرُّغْمِ مِنْ تَوَفُّرِ المَوَادِ الغذَائِيَّةِ لَدَيهِم وتَوَفُّرِ المِيَاهِ والآبَارِ ومَنَاعةِ حُصُونِهِم وصُعُوبَةِ

اقتِحَامِها فآثَرُوا التسليمَ علَى مُكَابَدَةِ الحِصَارِ وكَانَ المَوْقِفُ العَسْكَرِيُّ إِلى جانِبِهِم لِتلكَ الأَسْبَاب كُلِّهَا ولَشِدَّةِ تَعَبِ المُسْلِمِينَ وبَرُودَةِ الطَّقْسِ ولكنَّ معنوِيَّاتِهم المُنحطَّةَ انهَارَت فَلَمْ يُقَاوِمُوا طَوِيلاً . وقُتِلَ مُقَاتِلو بَنِي قُرَيْظَةَ جَمِيعاً ومَعَهُم حُيَيُّ بنُ أخطَبَ الَّذِي تَزَعَّمَ حَرَكَةَ تَحشِيدِ الأَحْزَابِ ضِدَّ المُسْلِمِينَ إلاَّ أربعَةَ رِجَالٍ مِنْهُمْ أَسْلَمُوا ولَمْ يُقْتَلْ من الأَطْفَالِ والنِّسَاءِ أحَدٌ عدَا واحِدَةٍ مِنَ النِّسَاءِ كَانَتْ قَدْ قَتَلَتْ مُسلِماً بإِلْقَاءِ رِحَاهَا عليْهِ فقُتِلَتْ بِجُرمِهَا هَذَا .

وهكَذَا يَكُونُ دمُ بَنِي قُرَيظَةَ مُعلقاً في عُنقِ حُيَيِّ بنِ اخطَبَ . وإِنْ كَانَ قَدْ قُتِلَ مَعَهُمْ فَهُوَ بتَأْلِيبِهِ قُرَيشاً وغطَفَاناً وتَحزِيبِهِ العَرب كُلِّهَا لِقِتَالِ النَّبيِّ . قَدْ عَمَّقَ العَدَاوَةَ بَينَ اليَهودِ والمُسْلِمِينَ وأيضاً كَانَ هُوَ الَّذِي حَمَلَ بَنِي قُرَيظَةَ مِنْ بَعدِ ذَلكَ على نَقضِ عهدِها والخروجِ مِن حِيَادِهَا ولَوْ أَنَّهَا أَبْقَتْ عَلَيْهِ لما أَصابَهَا من الشَّرِّ شَيْءٌ . وهُوَ الَّذِي دَخَلَ حِصنَ بَنِي قُرَيْظَةَ بَعْدَ ارتِحَالِ

الأَحْزَابِ ودَعَاهُمْ لِمُواجَهَةِ الْمُسْلِمِينَ والدِّفَاعِ عَنْ أَنْفُسِهِم بِمُقَاتَلَتِهِمْ . ولَوْ أَنَّهُمْ نَزَلُوا على حُكْمِ الرَّسُولِ مُنْذُ اليومِ الأَوَّلِ واعتَرَفُوا بخَطَئِهِم في نَقْضِ عَهْدِهِم . لما أُهْدِرَتْ دِماؤُهُمْ وضُرِبتْ أَعْنَاقُهُمْ لَكِنَّ العَدَاوَةَ بَلَغَتْ مِنَ التَأَصُّلِ في نَفْسِ حُيَيٍّ وانتَقَلَتْ مِنْهُ إلى نُفُوسِ بَنِي قُرَيظَةَ حدًا جعل سَعْدَ بنَ مُعَاذٍ وَهُوَ حَلِيفُهُم يُؤْمِنُ بأَنَّهُمْ إنْ أُبْقِيَ على حياتِهِم لَنْ تَهْدَأَ لَهُمْ نفسٌ حَتَّى يُؤَلِّبوا الأَحْزَاب مِنْ جديدٍ . وَيَجْمَعُوا العربَ لِقِتَالِ الْمُسْلِمِينَ ويَقْتُلُوهُمْ عن آخِرِهِم إنْ ظَفِرُوا بِهِم . فالحُكْمُ الَّذِي أَصْدَرَهُ سَعْدٌ على قَسْوَتِهِ وشِدَّتِهِ إنَّما أَصْدَرَهُ مُتَأَثِّراً بالدِّفَاعِ عَنِ النَّفْسِ مُعْتَبِراً بَقَاءَ اليَهُودِ أَوْ زَوَالِهِمْ مَسأَلَةَ حَيَاةٍ أَو مَوتٍ بالنِّسْبَةِ لِلمُسْلِمِينَ .

وقَسَمَ النَّبِيُّ أَموالَ بَنِي قُرَيظَةَ ونِسَاءَهُمْ وأَبْنَاءَهُمْ عَلَى الْمسلمينَ بَعْدَ أَنْ اخرجَ مِنهَا الخُمْسَ . واستَتَبَّ الأَمْرُ للرَّسُولِ والْمُسْلِمِينَ بَعْدَ غَزْوَةِ الخَنْدَقِ والقَضاءِ عَلَى بَني قُرَيظَةَ اسْتِتباباً جَعَلَ العَرَبَ تخَافُهُم أَشَدَّ الخَوْفِ

ولَقَدْ كَانَتْ غزوَةُ الخَنْدَقِ هِيَ المَعرِكَةَ الحَاسِمَةَ الثَّانِيَةَ بَعْدَ معركَةِ بَدْرٍ الكُبْرَى فَلَوْ نَجحَ المْشرِكُون واليَهُودُ فِي هَذِهِ المَعْرِكَةِ لِتَغَيَّرَ وجهُ التَّارِيخِ الإسْلامِي . وَكَانَ لِفَشَلِ الأَحْزَابِ مَعنى هُوَ أَنَّ هَذَا الحَشدَ الهَائِلَ مِن الرِّجَالِ الَّذِينَ اجتَمَعُوا لِقِتَالِ المُسْلِمِينَ لَنْ يَجْتَمِعُوا مَرَّةً أُخْرَى وبِذَلِكَ لَنْ يَستَطِيعَ المُشْرِكُونَ بَعْدَ اليَوْمِ أَنْ يَقْضُوا على المُسْلِمِينَ مُنْفَرِدِينَ بَعْدَ أَن عَجزُوا عَنِ القَضاءِ عَلَيْهِم مُجْتَمِعِينَ ولِهَذِهِ النَّتِيجَةِ أَثَرٌ حَاسِمٌ على انتِشَارِ الإسْلام فِيمَا بَعد فَلَقَد انتَقَلَ المُسْلِمونَ الآنَ مِنْ دَورِ الدِّفَاعِ عَنِ العَقِيدَةِ إِلَى دَورِ الهُجُومِ على أَعْدَائِهَا . وهَكَذَا وَطَّدَتْ غَزْوَةُ الخَنْدَقِ ووطَّدَ القَضَاءُ على بَنِي قُرَيظَةَ الأَمْرَ للمُسْلِمِينَ في المَدِينَةِ فَلَمْ يبقَ للمُنَافِقِينَ فِيهَا أَيُّ سُلْطَةٍ أَو صَوْت . وراحَتِ العربُ كُلُّهَا تَتحَدَّثُ عَن قُوَّةِ المُسْلِمِينَ وسُلطَانِهِم وبِمَقَام الرَّسُولِ وقُوَّتِهِ وَرَهبةِ جَانِبِهِ لَكِنَّ الرِّسَالَةَ لَمْ تَكُنْ لِلْمَدِينَةِ وَحدَهَا بَل كَانَتْ لِلْعَالَمِ بِأَسْرِهِ فَمَا يَزَالُ عَلَى

الرَّسُولِ وأَصْحَابِهِ إِذَنْ أَنْ يُمَهِّدُوا لِكَلِمَةِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وأَنْ يَدعُوا النَّاسَ لدِينِهِ الْحَقِّ وأَنْ يَصُدُّوا عَنْهُ كُلَّ مُعتدٍ وهَذَا مَا فَعَلُوهُ .

دار المسيرة

للصحافة والطباعة والنشر

هاتف : ٣١١٣٥٠ . بناية ريفييرا سنتر . كورنيش المزرعة

سجل تجاري : ٣٣٩٠٨ . ص.ب ١٤٥٢٩٩ . برقياً : ناصيرات . بيروت



هذه السلسلة

هذه السلسلة من انتصارات العرب ، محاولة جديدة من ضمن المحاولات الخيّرة التي سبقنا اليها ، آملين أن تساهم في تقويم النشء العربي وتوجيهه على أساس من الأخلاق والمثل الفاضلة، التي وضعها ديننا الحنيف لأبنائه ، وجسّمها الرسول الكريم نماذج حيّة بين البشر في أفعاله وأقواله .

فمن أحسن قدوة تقتدى ؟ ومن أهدى دليل يتّبع غيره ؟

فسيرته صور من الكمال والرفعة والإشراق ينبغي أن يلقنها الأبناء بأسلوب مبسط سهل بعيد عن التعقيد ، قريب من الفهم يستهويهم ويستميلهم للقراءة ، وهذا ما حاولنا القيام به والله المعين .

الناشر

دار المسيرة

دار المسيرة
للصحافة والطباعة والنشر
أثينا

